أيمن حويرة

Telegram:@mbooks90

بين استمرارية السعي وحتمية الوصول

كتوبيا للنشر
KOTOPIA
PUBLISHING
HOUSE

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إهـــــــداء

إلى الذين اختاروا الطريق وسلكوه، عاشوه أو ماتوا عليه، وصلوا لنهايته أو لم يصلوا..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مقدمة

كل منا له رحلته وطريقه الذي يسلكه، كل منا قطع أميالًا في سبيل الوصول. بعضنا تصبب عرقًا من صعود المرتفعات، واستقبل زخات المطر حين اضطر للسير في قارعة الطريق دون ساتر، توقف ليستريح من عناء الرحلة وحين اقترب من الوصول اكتشف أنه في المسار الخطأ فعاد أدراجه.

أما من ظن الوصول، وتهللت أساريره لذلك، فقد وجد مفاجأة في انتظاره.. الطريق لم ينته بعد، هناك رحلة جديدة تنتظره وعدة طرق عليه الاختيار منها.. عليه أن يعد العدة ويبدأ من جديد.

هذا الكتاب يحدثنا عن رحلة شخص ما.. ربما تكون رحلتك أنت وطريقك الذي سرت فيه، أو ربما هو الطريق الذي توقفت عنده لحظات ثم اخترت ألا تسلكه. ربما تكون في منتصفه الآن، تفكر في العودة، في التوقف، في الاستسلام، أو تجاهد كي لا تفقد الرغبة في استكمال المسير، لكنك في كل الأحوال، وأيًا كان موقعك الآن وخطوتك التالية، ربما ستحتاج لسماع هذه الكلمات ...

السبت، ٢٠ فبراير ٢٠٢١

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخطوة الأولى الطريق مقفر

«وأشقى الناس من يتوقع الشقاء وهو لا يعلم من حاضره ما الله صانع به، ولا من مستقبله ما الله قاضٍ فيه، وكأنّه يتظنّى بالله فيرى أنّه تعالى قد وكله إلى نفسه وأيأسه من رحمته»

الرافعي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(١)

هناك رحلات عديدة يخطط لها الإنسان، يضع جدولًا زمنيًا، وخط سير ومهامًا وهدفًا، يعلم جيدًا متى ستبدأ وكيف، ومن سيصحبه ويرافقه، أين سيقف للتزود ومتى سيكتفي ويعود أدراجه. لكن رحلات أخرى -ربما أكثر أهمية- تبدأ دون ترتيب، بل وأحيانًا دون علم صاحبها، وتنتهي.. عفوًا، غالبًا لا تنتهي حتى وإن ظن صاحبها أنها كذلك.

في البداية -وكأي بداية- يبدو الطريق شديد الوضوح، شديد التفاؤل. تبدو الرحلة هينة وسهلة المنال. كل منا يطمح لتحقيق هدف -أو عدة أهداف- طفولية، وطفولية هنا لا ترمز لمرحلة عمرية للإنسان وإنما ترمز للهدف نفسه. فالهدف كما الإنسان يبدأ صغيرًا ثم ينمو ويشب عن الطوق، ينضج ويصبح أكثر واقعية وتأقلمًا مع الحياة، ويعلم حينها -أقصد الهدف- أن بساطة الحلم لا تعني بالضرورة بساطة تنفيذه. لذلك كلما كان الهدف مثاليًا وكان الطريق لتحقيقه واضحًا جاز نعته بالطفولة.

مع مرور الوقت، تبدأ أهداف الإنسان في النضج، تبدو أكثر تعقيدًا، وتختفي الورد المفروش في طريق تحقيقها ليحل محلها أشواك، يصبح الطريق أكثر وعورة مما كان، أو للدقة مما بدا من قبل. تختفي الواحات الغناء وآبار المياه، يتنحى اللون الأخضر جانبًا مفسحًا الطريق للون الصحاري الأصفر المميز، تتلبد السماء بالغيوم عوضًا عن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تلك الزرقة الصافية التي رأيناها عند ولوجنا هذا الطريق، باختصار لقد صار الطريق مقفراً فجأة.

هنا يبدأ الطريق في رأيي، ما قبل ذلك ليس طريقًا حتى وإن بدا غير ذلك. هو مجرد نقطة انطلاق، محطة للتزود بما تتطلبه الرحلة. فمن علم ذلك، استطاع أن يعد العدة لرحلة مجهولة لا يعلم مداها إلا الله، ومن غفل عن ذلك تفاجأ لاحقًا برحلة لم تكن ربما في الحسبان.

تبدأ المعضلات حين يبدأ التأمل والتفكير، حين تطفو الأسئلة إلى السطح، وكلما زادت الأسئلة كلما أقفر الطريق مبكرًا. والأسئلة هنا ليست حكرًا على مجال دون الآخر، فهناك الأسئلة الدينية، وهناك السياسية وهناك الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، بل وحتى الأسئلة الفلسفية. تمتص هذه الأسئلة نضارة الطريق وتسلبه حيويته. ومع التوغل في طريق المعرفة، وارتياد الحياة من منظور الأعزل الذي عليه أن يبحث عن الإجابات قد يكون اليأس هو قبطان الرحلة وسيدها. هناك العديد من الأسئلة التي ليس لها إجابات، وأخرى لها إجابات خاطئة فقط، جميع الخيارات لا تحمل إجابة صحيحة. لذلك يجنح المرء حينها للإحباط ويرضى بالسير في طريق يعلم منذ البداية أنه مقفر وأنه لا حول له ولا قوة في اختياره، لا يملك فرصة التغيير ولا يرغب في المحاولة بسبب إما صدمته يوم علم أن الطريق ليس ورديًا كما تصور في بدايته، أو لإدراكه أن فئة صغيرة جدًا هي من تملك رفاهية المحاولة وإمكانية النجاح أو القدرة على تقبل الفشل. هو ليس أحد هؤلاء لذلك سيمضي في طريقه مدفوعًا بمؤثرات خارجية، فيصل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لنهاية الطريق -بمعجزة لا يد له فيها- أو يموت على الطريق.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخطوة الثانية الطريق ممكن

«كلما زادت جزيرة المعرفة اتساعًا، كلما تمددت شواطئ الجهل»

بيرسيفال لويل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(٢)

لقد حدثت المعجزة، ولاح في منتصف الطريق بصيص نور. لم يكن هذا حدثًا خرافيًّا خارج عن نطاق المألوف، لقد بدا كمعجزة لصاحبه فقط لأنه جاء من قلب اليأس والإحباط، لكنه بمقاييس الحياة كان متوقعًا لحد كبير. كل منا يحمل هذه اللحظة في طريقه. بل أزعم أن كلًا منا صادفها مرات عديدة في طرق مختلفة سار فيها يومًا ما. إنها لحظة الأمل، الشعور بإمكانية التغيير وجدوى المحاولة، لقد أضيف عامل جديد للمعادلة لم يكن جزءًا منها من قبل وصار المستحيل ممكنًا.

هناك من يبدأ طريقه بهذه المرحلة -وهي الأصعب- فيمضي محملًا بالأمل منذ اللحظة الأولى. قد يكون أملًا زائفًا، وقد يمتلك ما يبرره من مقومات، بل وقد لا يصادف ما يبدد هذا الأمل أحيانًا فتمضي به الحياة هادئة هانئة. لكن الغالب أن يدرك الجميع دورة حياة الطريق كاملة، ربما تتبادل بعد المحطات أماكنها لكنها لا بد وأن تأتي.

في رحلة كل منا، أي رحلة، عشر محطات مميزة. هذه المحطات موجودة منذ اللحظة الأولى، يدركها كل منا لكنه ينكر وجودها في طريقه ورحلته. يظن أنها محطات خاصة دومًا بالآخرين، لكنه، وبمرور الوقت، يدرك أنه أحد هؤلاء الآخرين.

المحطة الأولى هي محطة «الطريق مقفر»، يصلها الإنسان بمجرد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وصوله لنقطة الإدراك الفعلي لرحلته الخاصة. يسير في الطريق قبلها بلا هدى وبلا معرفة ثم يلجها حين يعلم وحين يعلم يحزن.

أما عن المحطة الثانية فهي محطة «الإمكان»، وفيها - كما قلت- تنقشع الغيوم ويبدو أن ثمة سبلًا للنجاح. المشكلة أن هذه السبل في الغالب حالمة. لا تستند إلى تجربة، وإنما تعتمد اعتمادًا كليًا على نظريات وأمنيات. يظهر ذلك بصورة بارزة جدًا في التجارب السياسية، لكنه يظهر بصورة أقل في التجارب الاجتماعية والإنسانية. لكن العامل المشترك في الحالتين هو أن القناعة التامة بأن هذا «يحدث للآخرين» فقط، وأننا درسنا التجربة، وعوامل فشلها -إن كانت فاشلة- وتخطيناها، أو أننا قادرون على محاكاة التجربة والتطوير فيها إيجابًا - إن كانت ناجحة- والحقيقة أن التاريخ لم يتوانَ عن إثبات عكس ذلك، والتأكيد على خطأ هذه الفرضية. وفي النهاية نردد بلا وعي أن التاريخ يكرر نفسه بسخافة بينما نحن من نسمح له بذلك.

في الخامس عشر من يونيو ٢٠٠٩، كان فريق كرة القدم المصري على موعد مع الفريق الأكثر فوزًا بكأس العالم، البرازيل، في مباراتهما الأولى في كأس القارات. الطريق بدا مقفرًا قبل بداية المباراة. صحيح أننا أبطال إفريقيا لبطولتين متتاليتين، وصحيح أن تشكيلة الفريق ضمت مجموعة متميزة من اللاعبين صُنفت لاحقًا كأحد أفضل أجيال الفريق المصري، لكن الخصم لا يزال هو البرازيل. مرت دقائق ونمت بذور الأمل وتحول «المقفر» إلى «ممكن». حتى بعد أن تقدم فريق السامبا بثلاثة أهداف ظل التفاؤل هو سيد الموقف،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اللاعبون يؤدون بجدية وروح عالية، والمباراة -بالرغم من نتيجتها- ما زالت متكافئة. وفجأة طرحت بذور الأمل طموحًا هائلًا، أحرز المصريون هدفين متتاليين تعادلوا بهما وعادوا إلى المباراة. لم يكن ذلك مؤشرًا فقط لإمكانية الوصول لنهاية الطريق، لكن لقرب النهاية السعيدة أيضًا.

انتهت المباراة نهاية مفاجئة -وربما ظالمة- بالهزيمة لكن ظل الطريق ممكنًا، خاصة بعد الفوز في المباراة التالية على الإيطاليين - أبطال العالم- والوصول لمحطة الأمريكان حيث الهزيمة بهدفين تكفي الفريق المصري للتأهل للدور قبل النهائي. هنا فقط ظهر أن الطريق لم يكن ممكنًا، أو ربما لم يكن ممكنًا بما يكفي، وأن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، وليس كل يتمناه المرء ممكنًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخطوة الثالثة الطريق قريب

﴿ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير﴾

الأعراف ١٨٨

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(٣)

الظروف مواتية، والريح هادئة، والسفن غادرت المرفأ في طريقها إلى وجهتها. تحذيرات الفاشلين تنهار على صخرة التفاؤل الطاغي الذي يملأ نفوس الطامحين. والفاشلون هنا صفة حسنة لا سيئة كما قد يبدو، فالفاشلون منذ سنوات هم حكماء اليوم، وعوا الدرس -أو هكذا نتمنى- وحاولوا جاهدين إرسال رسائل تنبيه للمسافرين الجدد، لكن، وتطبيقًا لنظرية «يحدث للآخرين» التي ذكرتها آنفاً يتجاهل هؤلاء تلك الرسائل ويمضون في طريقهم المبشر القريب.

هل الاندفاع في هذا الاتجاه والإفراط في التفاؤل خطأ على طول الخط؟ بالتأكيد لا، فالرجاء ضروري، بل وحتمي وهو المحرك الرئيسي لأي خطوة للأمام. لكنه الاعتدال في الرجاء، ذلك الخيط الرفيع بين الإفراط فيه والعدول عنه، السقوط في نفخ الإيجابية المطلقة أو الجنوح للسلبية المكبلة.

وبقدر ما يقترن الرجاء بالعمل والرؤية الصحيحة للموقف بقدر ما كانت مرحلة «الطريق قريب» مرحلة جيدة لا تحمل الكثير من خيبات الأمل الناتجة عن التوقعات المبالغ فيها والتي بالطبع لم تحدث. والحقيقة أن تكرار الحديث عن الإحباط لا يحمل رسائل سلبية محبطة كما قد يبدو، لكن تفسير ذلك سيأتي لاحقًا فمفهوم الوصول لنهاية الطريق قد يكون محل اختلاف من وجهة نظري.

لو حاولنا البحث وراء كلمة «النجاح» لوجدنا تعريفات عديدة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لهذا المصطلح، لكن الأكثر تداولًا هو تحقيق الأهداف المسبقة للمشروع، أي مشروع. يختلف البعض هنا حول نسبية هذه الأهداف من عدمه، ويذهب أصحاب مدرسة ضرورة الاحتكام لمرجعية أو مؤشرات عامة لوضع معنى للنجاح، فلربما يضع صاحب المشروع هدفًا متدنيًا سهل التحقيق، فينعت نفسه بالناجح حال الوصول له، بينما يُوصف آخر بالفشل فقط لأن الهدف كان أعلى وأكثر صعوبة. لكن، وبالعودة لفكرة خصوصية النجاح -في رأيي- فالتسليم بنسبية الأمر أكثر منطقية، على الأقل من منظور صاحبها.

تعتبر الثورة الفرنسية من أفضل الأمثلة على مفهوم النجاح النسبي، فالانتفاضة التي بدأت في ١٧٨٩ -ولم يكن الطريق حينها «ممكنًا» بعد- استطاعت في غضون عامين أن تجعل العائلة المالكة تفر في زي الخدم من القصر، وأن يوقع لويس السادس عشر أول دستور مكتوب لفرنسا، قبل أن يُطاح به وبالملكية وتُؤسس الجمهورية الفرنسية الأولى في سبتمبر ١٧٩٢. هنا تأكد الجميع أن الطريق «قريب» وأن الثورة ناجحة لا محالة، فقد صعد الثوار لسدة الحكم، وأعدموا الملك وبدأوا في تطبيق مبادئهم التي ثاروا من أجلها، ثم ...

تراجع التيار الثوري وعادت البورجوازية، وأطاح نابليون بحكومة المديرين وألف حكومة من ثلاثة قناصل كان هو أحدهم، ثم انتهى كل شيء حين أعلن نفسه إمبراطورًا لفرنسا.

هل نجحت الثورة الفرنسية؟ هل استطاعت تحقيق أهدافها؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإجابة هنا نسبية كما ذكرت سابقًا. لو وضعنا نقطة على خط الزمن في سبتمبر ١٧٩٢ لقلنا بوضوح أن الثورة قد نجحت، ليس فقط من منظور أصحابها الذين حققوا ما سعوا له، لكن أيضًا من منظور الجمهور الحيادي الذي وجد رأس الملك وقد طارت على المقصلة. لكن عدة سنوات أخرى على خط الزمن ستجعل منها ثورة فاشلة فقد أعدم ماكسميليان روبسبيير أحد قادة الثورة بعد قيامها بعامين فقط. فأي نجاح هذا الذي يطيح بصاحبه نفسه؟ لو أردنا أن نسأل روبسبيير عن رأيه فلن نجده لنعرف أراضٍ هو عما حققته الثورة أم لا.

واليوم، بعد ثلاثة قرون، هل نملك نظرة واحدة حاسمة عن الثورة الفرنسية؟ هل بمقدورنا أن نجزم بنجاحها أو فشلها؟ هذه هي نسبية النجاح التي أقصدها ونسبية قُرب الطريق التي تحدثت عنها. البعض يدرك في منتصف الطريق أنه أخطأ فيعود، والبعض لا يدرك فيمضي قدمًا في طريقه، لكن الأسوأ على الإطلاق هو من يدرك فلا يعود.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخطوة الرابعة الموت على الطريق

«هل يهمنا الوصول لنهاية الطريق أم الموت على الطريق»

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(٤)

حين أتحدث عن الموت على الطريق، لا أجد دومًا أفضل من غزوة مؤتة لتكون هي التطبيق العملي لهذه المقولة. فها هو عبد الله بن رواحة، القائد الثالث في جيش المسلمين بعد استشهاد زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب، يلقي على مسامع الجيش خطبة عصماء قال فيها:

«يا قوم، والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون، الشهادة. وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة. ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور وإما شهادة».

قاتل المسلمون ببسالة، لكن «الإمكانية» لم تشفع لهم، فاستشهد زيد وجعفر ثم عبد الله، وبات الجيش دون قائد، والمعركة على أشدها. هنا استقر المسلمون على خالد بن الوليد -ليتولى دفة القيادة، ويقود الجيش في المعركة. لو جاز لنا أن نخترق عقل خالد -رضي الله عنه- في هذه اللحظات، ولو افترضنا تشابه رؤيته مع أفكار قادة المعركة الثلاثة الذين استشهدوا وربما أفكار بقية أفراد الجيش، فربما فكر خالد في القتال حتى آخر رمق. سيرفع راية المسلمين عاليًا، ويردد بصوت جهوري: «إنها الشهادة»، ثم ينطلق -ومن خلفه ما تبقى من المسلمين- في معركة تبدو خاسرة، فينالون الشهادة التي تمنوها، وينتصر الروم، ثم ينتهي الإسلام في شبه الجزيرة كما بدأ فيها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا يعني هذا أن القرار الذي اتخذه عبد الله بن رواحة لم يكن سليمًا، لا يعني أنه قرر الموت على الطريق بكامل إرادته. كلماته التي رددها كانت «إما ظهور وإما شهادة»، لم تكن الشهادة مقدمة على النصر، ولا أظن أنه فكر في ذلك للحظة. لكن ما أظنه أن خالد بن الوليد لم يفكر في الشهادة، لم يفكر بها كخيار لكن بالتأكيد كان يعلم أنها كذلك. كان يعلم في مؤتة -تمامًا كما علم في أجنادين واليرموك وغيرهما- أن الشهادة واردة، لكنه كان يفكر دومًا في النصر، النصر كخيار أول وأخير. لم يفكر يومًا في الموت على الطريق ولم يرغب فيه. كان الطريق وسيلة فقط ولم يكن يومًا غاية، الطريق وسيلة والوصول غاية حتى وإن لم تدرك.

حين تسلم خالد أمور القيادة، فكر في النصر فلم يجد له بدًا. حينها أدرك أن النصر سيأتي لاحقًا، وأن هذه المعركة لن تنتهي لمصلحة المسلمين. كانت الرؤية واضحة تمامًا، لكن أسلافه لم يستطيعوا تبينها. قاتلوا في بسالة في معركة لن تكون لهم الغلبة فيها أبدًا. وهنا قرر خالد الانسحاب.

أحيانًا يظن البعض أن الانسحاب هزيمة، وأحيانًا يظن البعض أن الهزيمة لحظة لا نهائية، لحظة لا تنتهي. لكن الحقيقة أن الهزيمة هي نقطة على منحنى قلما يسير في خط مستقيم. وأن الهزيمة تشيخ وتموت مثلها مثل النصر لا خلود لكليهما. بل قد يكون ظاهر الأمر هو الهزيمة وباطنه النصر مثلما حدث في مؤتة. لقد استطاع خالد في هذه المعركة أن يؤسس لمدرسة فكرية -قبل أن تكون عسكرية- عظيمة،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مدرسة الوصول.

كان خالد من المرونة في التعامل مع الحياة وتغيير الأهداف لتناسب المرحلة، بما يكفي ليستطيع تخطي عقبة هامة في طريق وصوله. لم يكن الهدف هو الانتصار في مؤتة. كان هدفًا أسمى يشغله وهو الانتصار في اليرموك. بالتأكيد لم يكن يعلم أن سبعة أعوام تفصله عن معركة فاصلة سينتقم فيها من الروم، لم يكن أنها ستكون في اليرموك، ولم يكن يعلم أنه سيكون القائد حينها. لكنني أزعم أنه على الأقل كان يعلم أن هناك يرموكًا، وكان يعد العدة لها. كان يدخر جنوده لهذه المعركة. لم يأبه كثيرًا لما ردده أهل المدينة حين عاد خالد وجيشه منسحبين من مؤتة، لم يهتم حين طاردوهم قائلين: «يا فرار.. يا فرار» فقد كان يعلم أنهم سيعودون «كرار» كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام.

هل ينبغي لنا أن نموت على الطريق؟ وهل الموت على الطريق هو الخيار الأول أم الأخير؟

Telegram:@mbooks90

أعلم جيدًا أن هذه الأسئلة مكررة، رددها الكثيرون من قبل، ورددتها أنا نفسي عدة مرات هنا. لذلك فلا أظن أننا نحتاج للإجابة عليها بعد ما ذُكر في السطور السابقة. في ظني أن السؤال الأكثر أهمية هو: هل من الممكن للموت على الطريق أن يحمل حياة لآخرين؟ أعني هل يكون الموت على الطريق غاية؟ هل يمكن له أن يكون حتميًا وأن يحمل في طياته الحياة لآخرين؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإجابة على هذا السؤال لن تكون قاطعة. لن تكون شديدة البياض أو السواد. لو كنت تنتظر تأكيدًا أو نفيًا فلن تجده لأن النسبية هي سيدة الموقف. لكن أخبارًا سعيدة بانتظارك، فهناك بالفعل حالات موت على الطريق حملت لآخرين النجاة، وكفلت لهم حياة. والحياة والموت هنا كلمات افتراضية لا يعنيان بالضرورة المعنى البيولوجي. فمثلًا هجرة المسلمين الأولى للحبشة -إثيوبيا حاليًا- كانت حياة للإسلام كله حتى وإن بدت كموت لمن هاجر. ماتت حياتهم التي عاشوها في مكة سنين طويلة، أهلوهم وذووهم، أرضهم وبيوتهم، هجروا كل ذلك من أجل أن يحيا الإسلام.

لو قفزنا عدة سنوات، بالتحديد العام السادس من الهجرة النبوية، سنرى المسلمين في زي الإحرام المميز، علامات الوجوم تعلو وجوههم بعد أن وافق الرسول ﷺ على شروط كفار قريش، وقرر العودة للمدينة دون عمرة، بل ووافق على بعض الشروط الأخرى المجحفة في رأيهم. هذا موت لرحلتهم وحلم العمرة، وموت لما حققوه في السنوات الماضية من انتصارات وإنجازات. لكنَّ موتًا كهذا حمل مفاجأة سعيدة بعد عامين فقط، جاءت الحياة على هيئة فتح مبين فكان الموت في الحديبية اختيارًا صائبًا.

على مدار السنوات الماضية زرت مدنًا أوروبية وأمريكية مختلفة، وصادفت العديد من الجاليات المسلمة وتأثيرها في الثقافة الغربية. وجدت لافتات المحال وقد كُتبت أسماؤها باللغة العربية، ورأيت كلمة «حلال» وهي تزين واجهات تلك المحال، وتُطبع على أغلفة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الطعام. فكرت قليلًا وتساءلت: كيف حدث كل هذا؟ كيف استطاع المسلمون الوصول لهذا؟ كيف سيطروا على أحياء كاملة وصبغوها بعاداتهم وتقاليدهم وثقافتهم؟ كانت الإجابة مرة أخرى هي الموت على الطريق. لقد مات العديدون على الطريق ليرصفوه لنا. ضحوا بحياتهم الهانئة وترك كل منهم منطقته الآمنة ليصنع لنا مدينة آمنة. بالتأكيد لم يكن ذلك دون عائد، لكني أزعم أن ما خسروه على الطريق يفوق ما كسبوه.

إذن الموت على الطريق في حد ذاته ليس المشكلة، المشكلة حين يأتي هذه الموت دون حياة. أن يكون موتًا كاملًا، موتًا أبديًا. لو وهب الميت روحه لآخر قبل أن يذهب لكان لموته حينها ذا معنى، لصار الموت غاية. لكن موتًا يكتفي فيه الميت بتخليد موته لهو موت أناني.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخطوة الخامسة استمرارية السعي

«إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها»

حديث شريف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(٥)

أهلًا بك في منتصف الطريق ...

تخطينا أربع محطات رئيسية ووصلنا لمحطتنا الخامسة. فقط أؤكد أن قطار كلٍ منَّا قد لا يتوقف في المحطات نفسها. منا من سينتقل من المحطة الثانية للخامسة مباشرة، ومنا من سيتوقف قطاره في كل المحطات. ستكون الرحلة حينها صعبة إلى حد ما لكنها ستكون الأكثر متعة، أو لنقل الأكثر خبرة لأن المتعة لن تكون الكلمة الأنسب لو رافقنا الألم في رحلتنا.

نحن الآن في محطة «استمرارية السعي»، المحطة الأهم في رحلتنا. لو تخطيناها فقد يصبح الوقوف في المحطات التالية عديم الفائدة أو على أفضل الأحوال ذا فائدة محدودة جدًا. فالسعي في حالتنا محرك أساسي للرحلة، زادها والدافع الأساسي لاستكمالها. لا رحلة بدون سعي، ولا طريق بدون زاد.

لكن مهلًا، نحن لا نتحدث هنا عن السعي لكننا نتحدث عن استمرارية السعي. والحقيقة أن الفارق بين الفعلين كالفارق بين.. لا أعلم، لا أجد تشبيهًا معبرًا بما يكفي عن الكلمتين. ربما لأن السعي في حد ذاته هو فعل يحمل في طياته الاستمرارية. ربما يكون الفارق إذن كالفارق بين جمع القلة وجمع الكثرة في اللغة العربية فكلاهما جمع لكن أحدهما يشير لعدد أكثر من الآخر. وقد جاء جمع كلمة نفس في القرآن على هيئتين: فقيل «أنفس» للدلالة على عدد قليل (بين

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الثلاثة والعشرة)، وقيل «نفوس» للدلالة على الكثرة واللامحدودية، وجاء البحر مجموعًا على «أبحر» و»بحار».

ارتحت قليلًا لهذا التفسير حين فكرت به، إذن فالسعي هو بالأساس جهد مستمر لكنه محدود. وهو شيء محمود ومطلوب وبه يثاب الإنسان ويجزى، فقد قال الله عز وجل: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى﴾. وقد جاء لفظ السعي في القرآن بمعان أخرى فلم يقصد به العمل دومًا وإنما قُصد به المشي سريعًا في بعض المواضع وهو ما يضيف تأكيدًا إضافيًا على حرص فاعله وتمييزه للفعل واهتمامه به. وقد سميت المسافة بين الصفا والمروة بالمسعى، وكانت السيدة هاجر تسعى بين الجبلين باحثة عن ماء لطفلها إسماعيل -عليه السلام- مجتهدة في ذلك. كررت ذلك سبع مرات كاملة قبل أن يُفجر لها الله بئرًا تروي منه رضيعها.

هل كان ما فعلته السيدة هاجر سعيًا أم استمرارًا في السعي؟ ربما يمكننا أن نصل لإجابة أفضل لو أعدنا صياغة السؤال وقلنا: هل لو لم ينفجر البئر في المرة السابعة كانت هاجر ستتوقف عن سعيها؟ أو هل لو لم تسع هاجر كان البئر لينفجر؟ إجابة السؤال الثالث قد تبدو الأسهل فبالرغم من علمنا بأن قدرة الله لا محدودة وغير قابلة للإدراك إلا أننا -وكما علمنا القرآن- نعلم أنه قد ألزمنا بالعمل قبل المطالبة بنتاجه. وجاء العمل دومًا مقترنًا برضا الله، ودخول الجنة، غيرها من الحوافز الربانية الأخروية بل والدنيوية أحيانًا. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

إذن كان سعي السيدة هاجر كان سببًا رئيسًا في تفجير البئر، لكن هل كان ليكفيها لو سعت مرة واحدة ليكافئها الله أم كان الاستمرار حتميًا؟ وهل لو لم تأتها مكافأة السماء كانت لتستكمل رحلتها وسعيها؟ للإجابة على هذا السؤال نحتاج للحديث عن عنصرين أظنهما هم عماد أي رحلة سعي: الهدف، واليقين.

أما عن الهدف، فأهميته بالتأكيد ستجعل من استمرارية السعي إما ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها أو رفاهية قد يمل الإنسان منها ويزهدها سريعًا. لو استحق الهدف عناء الاستمرار في السعي لاستطعنا إجابة سؤال السيدة هاجر -أو ربما إجابة نصفه- بسهولة. هل تملك السيدة هاجر رفاهية أن تفقد رضيعها؟ هل تستطيع أن تتركه حتى يموت؟ هل عناء السعي أصعب عليها من عذاب الفقد؟ الإجابة تبدو واضحة.

لكن، هل تكرار الركض بين جبلين لا ينبأ حالهما باحتمالية ظهور مياه هو فعل منطقي؟ نعلم جيدًا أنها على استعداد للركض مئة عام من أجل طفلها لكن من قال أن الركض سيحل مشكلتها؟ كيف علمت أنها سعيها في الاتجاه الصحيح؟ لماذا لم تبحث عن وجهة أخرى لهذا السعي؟ تقدر المسافة بين الصفا والمروة بحوالي أربعمئة متر أي أنها ركضت في الأشواط السبعة قرابة الثلاثة كيلومترات. ألم يكن من الأفضل أن تقطع هذه المسافة في خط مستقيم فربما وصلت لمكان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

آخر يحمل بين جنباته الماء المطلوب؟

هنا يأتي دور العنصر الثاني في السعي، اليقين. فالسعي دون يقين هو موت آخر على الطريق. هو عمل لا طائل منه، يرضي به الإنسان ضميره لكن لا يحقق به مراده. أو لليقين علاقة بالطريق؟ ماذا لو استمر السعي، وواظب الإنسان عليه دون يقين أو ثقة بتحقيق المرجو من هذا السعي، هل ستتغير النتيجة حينها؟ في اعتقادي أن الإجابة هي نعم. يفسر ذلك ما نُسب لسيدنا علي بن أبي طالب من قول: «الناس من خوف الذل في ذل، والناس من خوف الفقر في فقر». فالناس هنا لا يملكون اليقين الكافي بنجاتهم من الذل أو الفقر، هم يبذلون جل ما في وسعهم -أو هكذا أفسر الأمر- لكنهم يوقنون أنهم هالكون لا محالة فيذهب سعيهم سدى. يحقق الله لهم ما يظنونه به فينتهي بهم الأمر في ذل وفقر بالرغم من سعيهم.

لقد امتلكت السيدة هاجر اليقين بأن الله سيرزقها بالماء، هي تعلم أن كل ما عليها فعله أن تسعى لذلك، أن تريه -عز وجل- أنها تستحق هذا الماء وأنها ستبذل جهدها لتحصل عليه لكنها لا تعلم كيف. كان الحل في نظرها أن تركض، فقط تركض. هذا هو السعي الخالص الخام. هدفها واضح وهو الماء، ويقينها تام بأن الله سيرزقها إياه فقط إن قدمت ما يثبت جديتها وحصرها.

حسنًا، دعونا نفترض جدلًا أنها واصلت الركض، سبعة أشواط، عشرة أشواط، ثلاثين شوطًا، خمسين، تسعين، تسارعت أنفاسها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وخارت قواها. بكاء الطفل ما زال يخترق أذنيها، حزينة هي وتتألم لذلك لكنها في الوقت نفسه سعيدة. هذا الصوت هو المؤشر الوحيد على حياة هذا الطفل، لو خفت صوته أو توقف لكان ذلك إيذانًا بوفاته. ماذا تفعل الآن؟ هي تمتلك اليقين الكافي والهدف السامي لكنها لا تجد أثرًا لذلك. هل كانت للتوقف؟

هذا هو الاختبار الحقيقي. لو أجبنا عن السؤال بلا لصرنا روبوتات. ما من بشري لا يضعف، لا تأتيه لحظات يأس أو إحباط. الأكثر تشاؤمًا وشططًا ربما يفقدون إيمانهم في تلك اللحظات. سيرددون أن الله لا يراهم، وأنهم فعلوا ما طُلب منهم لكنهم لم يجدوا ما وعدوا - كما يظنون- بينما الأكثر تفاؤلًا سيظلون على إيمانهم لكنهم سيفقدون الرغبة في الحياة وسيفضلون الموت على الطريق. سيستدير أحدهم، ويعود أدراجه للمحطة السابقة. سيفضل أن يخلد خسارته بصورة بطولية على أن يموت دون أن يعلم الآخرون بموته. سيختار موتًا قريبًا مؤكدًا على أن ينتظر حياة بعيدة محتملة.

أعلم أنَّ القصة التالية ربما تبدو خارجة عن السياق، لكنني أظن أنها الأفضل لتبسيط الفكرة. إنها قصة سيدنا موسى والخضر. أغلبكم يعلم تفاصيل القصة التي قصها الله علينا في سورة الكهف. نرى نبي الله، وقد ظنَّ بأنه قد حاز المعرفة الكاملة، يلتقي رجلًا صالحًا -هو أعلم منه كما أخبره وأخبرنا الله عز وجل- ليتعلم منه. الرغبة والهدف مضيئان هنا كشمس، والسعي موجود إذ سأل موسى عن مكان هذا العبد الصالح وسعى إليه. كان اختبار الخضر غريبًا، غريبًا في أسئلته،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

غريبًا في أجوبته. لكن تفاعل موسى -عليه السلام- مع الأمر كان محيرًا. لقد بدأ الخضر حديثه مؤكدًا أن موسى لن يستطيع معه صبرًا، وكيف يصبر على ما لم يحط به علمًا. لكن موسى أكد أنه سيسعى إلى الصبر لينال المعرفة.

حسنًا، انطلقا في رحلتهما، وكانت البداية مع السفينة. سفينة تحمل جمعًا كبيرًا، وتنطلق في عرض البحر. طلبًا الصعود لسطحها فأجابهم راكبوها لطلبهم فما كان من الخضر إلا أن يرد الحسنة بفعل قاسٍ. لقد خرق السفينة وأفسدها. وحين استنكر موسى ظنًا منه أن الحدث لا علاقة له بما اتفقا عليه منذ قليل، أخبره الخضر أن ثمة اتفاقًا بينهما على ألا يسأل، وأكد مرة أخرى أنه قد أخبر موسى بصعوبة أن يصبر على تصرفاته وأفعاله فاعتذر موسى وأكد التزامه بالاتفاق.

محطتهما الثانية كانت ذلك الغلام الصغير، هل يتصور أحدكم أن يكون مصيره القتل في قصتنا؟ هكذا تعجب موسى حين أقدم الخضر على ذلك واستنكر فعلته فما كان من الخضر إلا أن ذكره مرة أخرى بالاتفاق وحذره أن هذه هي المرة الأخيرة التي سيسمح له بتجاوز هذا العهد. لكن موسى -ورغم علمه بأنها فرصته الأخيرة، وعلمه بأن الفعل القادم بالتأكيد سيكون جزءًا من الاختبار- لم يستطع الصبر. خرج عن صمته للمرة الثالثة متسائلًا عن السبب وراء بناء سور القرية التي لم يقم أهلها باستضافتهم. هنا أعلن الخضر نهاية اختبار السعي بعد أن أخبر موسى بالسبب وراء أفعاله وتبريراتها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هل امتلك موسى الهدف؟ بالتأكيد، فقد رغب في المعرفة بعدما علم من الله -عز وجل- أنه ليس أعلم أهل الأرض هل امتلك موسى اليقين بأن سعيه وراء المعرفة سيكلل بالنجاح؟ لو امتلك موسى يقينًا بأن عصاه ستصبح ثعبانًا يلقف ما صنعه السحرة فقد امتلك بالتأكيد يقينًا يكفي العالم أجمع. إذن لماذا لم يستكمل سعيه؟ لماذا توقف حين أوشك الطريق على النهاية؟ أو أوشك الطريق حينها على نهايته بالفعل؟ هنا نتوقف قليلًا لنرى إن كنا نملك حقًا إجابة هذا السؤال. هل أدرك موسى أن الطريق قريب؟ ربما ظن موسى حينها أن عشرين موقفًا آخر ينتظرونه مع الخضر، ربما مئة. ربما سيقتل، أو يسافر آلاف الكيلومترات، ربما يطلب منه الخضر ما لا يطيقه. هو يعلم أن المعرفة تنتظره في النهاية لكنها مكلفة. ثمنها في حالة موسى كان الصبر، وهو لم يستطع صبرًا. امتلك الرغبة واليقين لكنه افتقد العزيمة. وحين علم أن الطريق قريب لكنه لن يستطيع المضي قدمًا فيه، توقف ظنًا منه أن الوصول لن يأتي أبدًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخطوة السادسة حتمية الوصول

«ليس مهمًا ما ستحصل عليه بعد تحقيق أهدافك، بل المهم أي إنسان ستصبح بعد تحقيقه»

ديفيد ثورو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(٦)

لم تتوقف السيدة هاجر عن السعي؛ فوصلت لنهاية الطريق وتوقف موسى عليه السلام ووصل أيضًا لنهاية الطريق، وتوقف الكثير منا عن السعي فلم يصل. لكن ماذا لو استمر السعي ولم يأت الوصول؟

هنا تظهر أكثر محطات الطريق وعورة، وأشدها صعوبة. المحطة التي يختلف المسافرون حولها وحول فلسفتها. هل العلاقة بين السعي والوصول علاقة طردية؟ هل هناك علاقة بالأساس أم أن الوصول له اعتبارات أخرى لا دخل للسعي بها؟ هل استمرارية السعي مؤشر على احتمالية الوصول أم أن جودة السعي هي المسئولة عن ذلك؟ للإجابة عن هذه الأسئلة، دعونا نعود مرة أخرى للسؤال عن ماهية الوصول.

تحدثنا في محطة «الطريق قريب» عن مفهوم النجاح ونسبيته، وذكرت أن متغيرات عدّة قد تتدخل لتعيد تقييم الأمور منها عامل الزمن نفسه. لذلك فاعتبار أمر ما ناجحًا قد يختلف من شخص لآخر، وقد يختلف حتى على مستوى الشخص نفسه من وقت لآخر. لكن ماذا لو اتفق الجميع على توصيف نجاح ما، وأجمعوا على ذلك، هل نجزم حينها بأن هذا النجاح نجاح؟

أتذكر هنا قصة من الأثر حُكيت عن النبي سليمان -عليه السلام- وفيها كان نبي الله في مجلسه ومعه أحد الرجال فدخل عليهم رجل وأخذ يطيل النظر في الجالس بجوار سليمان -عليه السلام- حتى فزع الأخير. وحين رحل الزائر سأل الجالس سليمان عن هوية هذا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الزائر فأخبره سليمان أنه ملك الموت متجسدًا في صورة رجل. بكى الرجل وطلب من سليمان أن يأمر الريح لتحمله إلى الهند حتى يأمن على نفسه من ملك الموت لو قرر أن يقبض روحه، فما كان من سليمان إلا أن فعل في حينها. في اليوم التالي عاد ملك الموت ودخل على سليمان فسأله سليمان عن سبب تحديقه بالأمس في ضيفه حتى أفزعه. أخبره ملك الموت أن الله قد أمره أن يقبض روح ذلك الرجل في الهند فلما وجده عنده تعجب لذلك. لكنه بعد لحظات ذهب إلى الهند كما أُمر فوجد الرجل هناك فقبض روحه.

بغض النظر عن مدى صحة القصة التي رويت عن أحد التابعين، لكن المغزى من ورائها واضح كما أظن. هذا رجل سعى ليحافظ على حياته، ظنًا منه أن ما فعله هو قد يؤتي ثماره. وحين استجاب سليمان، صار هذا الظن يقينًا. الآن وصل الرجل للنهاية السعيدة التي تمناها ونجح مسعاه. ها هو يطير إلى الهند فيبتعد عن ملك الموت واحتمالية قبض روحه لو كان هو من استهدفه الملك. وفجأة تنكشف الصورة ونعلم أن ما ظنه الرجل وصول هو في الحقيقة أبعد ما يكون عن ذلك.

قد يبدو هذا المثال مضللًا بعض الشيء. صحيح أن الرجل في البداية قد حسب أن الذهاب للهند نجاحًا، لكن المؤكد أنه علم -أو علمنا نحن- خطأ هذه الفرضية بعد لحظات. هذا وصول زائف تم اكتشافه لاحقًا. فهل هناك زيف لا يتم اكتشافه؟ الإجابة هي نعم. قد تبدو الإجابة غريبة بعض الشيء، فكيف لزيف لم يتم اكتشافه أن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يُكتشف؟ نعود هنا مرة أخرى لعامل الزمن. لقد استطعنا إدراك ذلك الزيف بعد مرور وقت طويل، لكن الصورة المطروحة في حينها كانت إيجابية. كان وصولًا مؤكدًا لا غبار عليه.

حسنًا، لم تكن الأمثلة السلبية هي الأهم في محطتنا هذه، لكن ذكرها كان ضروريًا. لكن الأهم في رحلتنا هي تلك النهايات التي ظننا أننا لم نحققها، ذلك الوصول الذي وصلناه لكننا لا نعلم. سيقفز إلى الأذهان الآن صلح الحديبية مرة أخرى باعتباره وصولًا دون معرفة، لكن الحقيقة أن الرسول -عليه الصلاة والسلام- كان يعلم. فكرت كثيرًا في أمثلة تصلح فلم أجد مثالًا يلائم الفكرة أكثر من قصة سيدنا يوسف -عليه السلام- ورحلته في الحياة. لن أتوقف كثيرًا عند طفولته وتخلي إخوته عنه في البئر، ولن أناقش كم كانت قصته مع امرأة العزيز سببًا في أن يمتلك خزائن مصر لاحقًا فيوسف لم يسعَ لأي منهما. لذلك حتى ولو كانت النهاية وصولًا فالبداية لم تكن سعيًا.

أما المشهد الذي أحب التوقف عنده ووضع إطار بديع حوله فهو مشهد السجن. ها هو نبي الله يختار السجن بديلًا عما دعته إليه امرأة العزيز، ويدخله راضيًا بقدره، محتسبًا. في السجن كان اللقاء مع صاحبيه، قصا عليه أحلامهما، وسعى هو في تفسيرها. فأما من رأى نفسه يعصر خمرًا فقد بشره بالخروج من السجن والعودة لعمله، وأما الآخر فيُصلب فتأكل الطير من رأسه. لم يتوقف سعي يوسف عند تفسير الأحلام، بل لم يكن هذا سعيًا موجهًا بالأساس. أما السعي الحقيقي فكان رجاؤه أن يذكر عاصر الخمر يوسف عند سيده فيمنحه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فرصة للخروج. هل كُلل مسعاه بالنجاح؟ لو لم يخبرنا القرآن بنهاية القصة لتصورنا أن يوسف لم يصل، سعى ولم يصل. سنوات طويلة في البئر ثم السجن، ولم يصل. لكن الحقيقة أن الله ادخر له خزائن مصر، وادخر له حلمًا آخر يكون هو مفتاح هذه الخزائن. إنه حلم البقرات السبع، والسنابل الخُضر.

هنا أثمر السعي وصولًا، تذكره صاحب السجن وذكره لسيده. أخبره أن يوسف قادر على تأويل حلمه فأتى به ليسأله، وحين انتهى يوسف عرفه الملك وجعله وزيرًا. هذا سعي بلا وصول في نظر صاحبه، سعي استمر سنوات دون أمل. لكن وصولًا رائعًا انتظره في النهاية، وصولًا يليق بسعيه.

لكن يبقى هذا الوصول وصولًا دنيويًا، ماديًا، ظاهرًا حتى وإن تأخر، فهل يعني هذا أن كل سعي يلزمه الوصول؟ هذه هي المعضلة الأكبر. معضلة فلسفية بالغة التعقيد. لو قلنا أن كل سعي يلزمه وصول -حتى وإن تأخر- فسنكون قد جزمنا بما لا نملك تأكيده. يخبرنا الله أنه -عز وجل- لا يضيع أجر من أحسن عملًا، فكيف يسعى الإنسان دون وصول؟ لكن الحياة تخبرنا بملايين القصص التي لم يصل ساعوها. إما ماتوا على الطريق، أو خرجوا عنه يأسًا أو كمدًا. كيف لما نراه بأعيننا أن يستقيم وما أخبرنا به الله؟ هنا يبرز الحل الذي تحدثنا عنه من قبل. فالوصول الذي وعدنا الله هو وصول آخر غير ذلك الذي نطارده. ليس بالضرورة وصولًا معنويًا كما نتخيل، وإنما قد يكون ماديًا، لكن مغايرًا لما ننتظره.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخطوة السابعة الوصول لنهاية الطريق

«ونحن نرى أن هذه الحقائق بديهية، إن جميع البشر خلقوا متساوين، وأنهم وهبوا من خالقهم حقوق غير قابلة للتصرف، وأن من بين هذه الحقوق حق الحياة والحرية والسعي وراء السعادة.»

إعلان الاستقلال الأمريكي - ١٧٧٦

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(٧)

على بعد أمتار بسيطة لافتة كُتب عليها «نهاية الطريق» ...

وصلت بعد عناء ورحلة طويلة، أو ربما تصورت ذلك. تنفست الصعداء وبدأت تحلم بالراحة والنعيم اللذين ينتظرانك. أخيرًا ستبتسم لك الحياة، ستنعم بطيب العيش الذي تستحقه عن جدارة بعدما حققت شرط السعي. انتظرت أن ترى واحة غناء أو طريقًا مغلقًا، لكن لافتة جديدة على بعد سنتيمترات فقط من تلك التي حملت كلمة «النهاية» كانت هناك. جاورتها معلنة بداية طريق جديد، ورحلة أطول من سابقتها. هكذا أخبرتك اللافتة التي خُط عليها رقم جديد. لمحت في أسفل اللافتة وجهًا باسمًا، بل ضاحكًا، غمز لك ولسان حاله يقول: «هل تصورت أن الرحلة قد انتهت؟ ما زال الطريق طويلًا، وما زال هناك العديد من المفاجآت في انتظارك». هنا فقط عرفت أن الطريق ليس طريقًا وإنما طرقًا عديدة.

في الرابع من يوليو عام ١٧٧٦، حصلت الولايات المتحدة الأمريكية على استقلالها، أو أعلنت هذا الاستقلال، وقام توماس جيفرسون بكتابة نص الإعلان الذي ذكر فيها أن المستعمرات الأمريكية الثلاثة عشرة قد أصبحت ولايات مستقلة عن الإمبراطورية البريطانية. هل انتهى الطريق هنا؟ لا بل لقد بدأ حينها. انطلقت الحرب بين الطرفين على مدار خمس سنوات حتى انتصر الأمريكيون في معركة يوركتاون بفرجينيا ونالوا اعترافًا باستقلالهم حين

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقّع الطرفان معاهدة باريس في ١٧٨٣ثم انتظر الأمريكيون حتى عام ١٧٨٨ قبل أن يتم التصديق على اتفاقية دستور البلاد.

هل انتهى الطريق؟ لم ينته. أسس الأمريكيون نظامًا ديمقراطيًا محكمًا تداولوا فيه السلطة دون أن يتعدى أحد أطرافها الثلاثة على الطرفين الآخرين. سلطة قوامها الأساسي هو: السلطة التنفيذية متمثلة في الرئيس، السلطة التشريعية والمتمثلة في الكونجرس بغرفتيه، والسلطة القضائية وعلى رأسها المحكمة العليا. سار الأمريكيون في طريق بدا ممتدًا، حتى جاء عام ١٨٦١ ليحمل تحديًا جديدًا وطريقًا لم يكن على قائمة الزيارات. أعلنت إحدى عشرة ولاية من ولايات -بقيادة جيفرسون ديفيس- تأسيس كيان جديد تحت اسم الولايات الكونفدرالية الأمريكية بعد انفصالهم عن الولايات المتحدة وإعلانهم الحرب عليها. قاد أبراهام لينكولن -رئيس الولايات المتحدة الأمريكية حينها- الحرب التي عرفت لاحقًا بعدة أسماء على رأسها الحرب الأهلية الأمريكية، وانتصر في النهاية. هل قلنا النهاية؟ نعم، لكنها فقط كانت نهاية الحرب.

انتهت الحرب الأهلية، وبدأت الولايات المتحدة في التمدد التوسع بشراء أراض جديدة حتى وصل عدد أعضاء الاتحاد الفيدرالي خمسين ولاية. بدأ القرن العشرون، وبحلول العام الخامس من عقده الثاني جاءت الحرب العالمية الأولى لتغير خارطة العالم، توارت بريطانيا قليلًا مفسحة مجالًا أوسع للولايات المتحدة الأمريكية، ذلك المكان الذي احتلته الأخيرة تمامًا مع انتهاء الحرب العالمية الثانية. هل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

انتهى الطريق؟ دعونا نرَ.

سنتغاضى عن الحرب الباردة مع روسيا، وتَورُّط الأمريكيين في الشرق الأوسط وسنذهب معًا إلى نوفمبر ٢٠١٦ حين صعد دونالد ترامب إلى قمة العالم بعد انتخابه رئيسًا للولايات المتحدة. هنا اختلفت الصورة تمامًا، وتساءل الجميع عن جدوى كل ما تم إنجازه لو أن ثغرة بسيطة في النظام قد تطيح به كله. تصور الجميع أن الطريق الذي سارت فيه الولايات المتحدة أصبح آمنًا ثم استيقظوا في العشرين من يناير ٢٠١٧ ليجدوا أن كل هذا قد صار في مهبِّ الرِّيح.

لم يقتصر الأمر على ذلك، لكن الأسبوع الأول من نوفمبر من عام ٢٠٢٠ شهد احتجاجات من أنصار ترامب بعد أن أُعلن عن فوز بايدن بالرئاسة. اقتحموا البيت الأبيض، وأعلنوا رفضهم لنتائج الانتخابات، وصار الأمر على شفا حفرة من نار، ثم هدأ كل شيء وعادت الأمور لنصابها.

هل حقًا وصلت الولايات المتحدة لنهاية الطريق؟ يجوز لنا أن نطلق هذا السؤال بهيئتيه الإيجابية والسلبية. فلو نظرنا للأمور من منظور إيجابي، سنتساءل عن إمكانية وجود نهاية آمنة دائمة لأي طريق. طريق الولايات المتحدة استمر أكثر من مائتي عام، لكن طريق العباسيين دام خمسة قرون وكذلك كانت رحلة العثمانيين ثم انتهت كلاهما. سيقول البعض أن عوامل النجاح والبقاء لم تتوفر لهما كما توفرت لقطب العالم الأوحد، لكن نواميس الكون لا تحابي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أحدًا، وكما انهارت حضارات الفراعنة وبابل، وانتهت الإمبراطورية الرومانية ومن قبلها الإغريقية، وغابت الشمس عن الإمبراطورية التي قيل أنها لن تغيب عنها، فلماذا ستتجاوز عن بلاد العم سام!

على الجانب الآخر، لو تنحت أمريكا عن كرسيها في زعامة العالم، ألا ينبغي أن تترك مكانها لغيرها؟ ألا تحمل النهاية الحزينة لأحدهم في طياتها نهاية سعيدة لآخر؟ والنهاية السعيدة هنا قد تعني نهاية طريق صعب، أو نهاية سعي يائس كما ذكرنا من قبل.

وهنا نعود للافتة التي صادفتنا عند نهاية الرحلة، تلك التي حملت إشارة لبداية جديدة. إذن فهي لم تكن رحلة واحدة قط، ولا طريق وحيد. هي مجموعة متشابكة من الطرق التي قد تتقاطع، بل وقد تجبرنا أن نسلك عدة طرق في آن واحد. رحلات متتالية ونهايات مؤقتة مختلفة، ونهاية واحدة آمنة نعلمها جميعًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخطوة الثامنة الإجابات

«لا تختر بالضرورة النتيجة التي تبدو أفضل في كلِّ مرَّة»

خوارزميّات للعيش وفقًا لها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(٨)

وصلنا للافتة النهاية فلم نجد النهاية حاضرة، بل وجدنا بداية جديدة، أو ربما منحنى يقود إلى طريق فرعي. الآن الحيرة هي سيد الموقف. عشرات الأسئلة تدور في رأسك. هل هذه حقًا هي نهاية الطريق؟ هل قمت بالسعي بما يكفي للوصول؟ وهل كان الوصول مكافئًا لما قدمته من سعي؟

بالتأكيد درات هذه الأسئلة -وغيرها- بخلد كل منا مرات عديدة. توقف في منتصف الطريق وتساءل عن جدوى استكمال المسيرة، أو نظر للخلف وفكر في العودة أدراجه، أو ربما التفت يمينًا ويسارًا بحثًا عن مخرج أو طريق أقصر، أو ربما أفضل.

أتصور أن الحسين -رضي الله عنه- تساءل مرات عديدة هل كان الخروج لملاقاة يزيد بن معاوية قرارًا صائبًا أم لا. لو طرحنا هذا السؤال اليوم لوجدنا اختلافًا كبيرًا وتباينًا واضحًا في ردود الفعل تجاه هذا الموقف تحديدًا. ما زال الكثيرون يرونه تصرفًا شجاعًا وضروريًا حتى وإن أتت النتائج مخالفة لذلك، بينما يرى البعض الآخر أن مسارات أخرى كان من الأفضل طرحها وسلكها. هل هذه اللحظة التاريخية كانت الوحيدة؟ بالتأكيد لم تكن هي الوحيدة التي ما زلنا حتى يومنا هذا نختار في جدواها، ونتساءل عن الاختيار الأفضل. لكن اختلاف الناس حول هذه اللحظات التاريخية يعني أن الصورة ما زالت مشوشة، وأن أعوامًا وقرونًا لم تكن كافية لكشف أسرارها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أو إماطة اللثام عن تفاصيل ومعلومات تقود لخيار أكثر صواباً.

هنا توقفت للحظة وتساءلت: لماذا لم نصل حتى الآن؟ لماذا انتهى بنا الطريق حيث لا نريد؟ هل كانت نهاية الطريق هي ما كنا نتمناه؟ هل ضللنا الطريق؟ ولو ضللناه فهل كان ذلك مقدراً لنا أم كنا أصحاب القرار في ذلك؟ لو أردنا حقًا أن نتجنب ملاقاة التاريخ مرة أخرى في مشهد معاد ومكرر، لوجب علينا التأمل في قراراتنا وإجاباتنا على الأسئلة الإجبارية التي تعرضنا لها أثناء الرحلة، التأمل فيها ومراجعة إجابتنا من منظور مختلف ورؤية جديدة، مراجعة كل الخيارات المتاحة حينها ودراستها مرة أخرى. ينبغي لنا أن نسأل أنفسنا هل اخترنا الخيار الأنسب؟

الخيار الأنسب.. توحي هذه الجملة بأن الأسئلة التي طُرحت علينا كانت دومًا على هيئة اختيار من متعدد، أو هكذا نظن. بل ربما نكون قد اختلقنا لأنفسنا خيارات لنختر منها، أو عزفنا عن الإجابة لعدم وجود خيارات كافية. في اعتقادي أن جُلَّ الأسئلة التي تواجهنا في حياتنا لا تندرج تحت هذا النوع من الأسئلة، ليست أسئلة اختيار من متعدد لكنها أسئلة مقال، أسئلة لا إجابة لها، أو بصورة أكثر دقة أسئلة ذات إجابات صحيحة عديدة. الآن المشهد أكثر وضوحًا. لهذا السبب قد نعيد تقييم حدث ما، وقد نعطي الإجابة صفر بعد أن حاز نفس السؤال من قبل العلامة النهائية. الإجابة الصحيحة ليست كلمة أو اثنتين، بل مقاطع عديدة تحمل بين سطورها العديد من التفسيرات والتبريرات. يقول الرسول صلى الله

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عليه وسلم: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»، فكيف لنية أن تكون إجابة لسؤال لو لم تكن من ضمن خيارات الإجابة؟ كيف لنية أن تصلح العمل أو تفسده إذا لم نكن مطالبين بإجابة مطولة نشرح فيها أنفسنا؟

أفكر الآن في مواقف لم يحالف أصحابها الحظ في الاحتفاظ بالعلامة الكاملة لإجابتهم على أسئلة مرت بهم في الطريق. أفكر في معاهدة ٣٦ التي وقعها مصطفى باشا النحاس. تلك المعاهدة التي دافع عنها الوفد كثيرًا وعدد مميزاتها وروج لها على عكس الانطباعات التي عمت أوساط الجماهير وقتها، وكيف رفضت هذه الجماهير بنود المعاهدة، وانتقدت الكثير من بنودها، وعللت ذلك باستمرار السيادة الإنجليزية على مصر، وبأن ذلك الاستقلال المزعوم -منذ تصريح ٢٨ فبراير- لم يمنع الإنجليز من التحكم في مصير مصر.

أرى الآن على ضوء ما ذكرته آنفًا أن تحويل سؤال: «هل معاهدة ١٩٣٦ جيدة أم لا؟» إلى «اذكر مميزات وعيوب المعاهدة» كفيل تمامًا بتغيير عجلة التاريخ. سيظهر تساؤل مشروع عن صلاحية النظرية المذكورة وجدوى تطبيقها في حالة المعاهدة. يجيب عن هذا التساؤل النحاس باشا بنفسه في الثامن من أكتوبر عام ١٩٥١، حين اعتلى منصة مجلس النواب ليلقي بيانه في مشهد مسرحي قائلًا:

«حضرات الشيوخ والنواب المحترمون، لقد انقضى وقت الكلام وجاء وقت العمل، العمل الدائب المنتج الذي لا يعرف ضجيجًا أو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صخبًا، بل يقوم على التدبير والتنظيم وتوحيد الصفوف لمواجهة جميع الاحتمالات وتذليل كل العقبات، وإقامة الدليل على أن شعب مصر والسودان ليس هو الشعب الذي يُكره على ما لا يرضاه أو يسكت عن حقه في الحياة. أما الخطوات العملية التالية فستقفون على كل خطوة منها في حينها القريب، وإني لعلى يقين من أن هذه الأمة الخالدة ستعرف كيف ترتفع إلى مستوى الموقف الخطير الذي تواجهه متذرعة له بالصبر والإيمان والكفاح وبذل أكرم التضحيات في سبيل مطلبها الأسمى. يا حضرات الشيوخ والنواب المحترمون: من أجل مصر وقعت معاهدة سنة ١٩٣٦ ومن أجل مصر أطالبكم اليوم بإلغائها»

ألغى النحاس المعاهدة التي أعلن أنها الإجابة الصحيحة قبلها بخمسة عشر عاما. لم يعلن حينها فقط أنها الإجابة الصحيحة، بل عارض كل من شكك في صحة هذه الإجابة أو حتى طلب تفسيرًا لها. وبعد أعوام عديدة، عاد ليؤكد أنه اختار لمصر إجابة صحيحة جديدة، إجابة لنفس السؤال!

أزعم الآن أن حديثًا لا يحمل يقينًا تامًا كذلك الذي حمله النحاس حين وقع الاتفاقية ربما كان أكثر نفعًا. حديثًا يؤكد أن هذه البنود هي أفضل ما يمكنه الحصول عليه الآن. ما يمكنه هو وليس ما يمكن في المطلق. لو لم يحتكر الحقيقة في حينها، لربما وصل إلى أكتوبر ٥١ قبلها بسنوات، أعني هنا أن يصل لقرار إلغاء المعاهدة. لو كان تحرر من كِبر اتخاذ القرار الأفضل، وأعلن أنه اختار الأنسب لكان من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السهل عليه أن يتراجع دون خجل. لو صادف عشرات الإشارات - وهو ما أظنه- أثناء طريقه لم يكن ليتراجع إلا لو سمح لنسفه بإجابة طويلة جدًا. إجابة تظل صالحة لكل زمان.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخطوة التاسعة الأسئلة

«ليست الإجابة ما ينير الطريق، وإنما السؤال»

يوجين يونسكو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(٩)

لماذا نجيب إجابات خاطئة؟

سؤال بديهي يحتاج بالتبعية لإجابة بديهية. نحن نجيب الإجابات الخاطئة لأننا لا نعلم، أو لأننا نعلم لكننا نقامر. قد نفتقد الخبرة اللازمة للإجابة، أو نمتلك خبرة زائدة تجعلنا أكثر حرصًا وخوفًا حين لا يستدعي الأمر كل هذا الحرص. قد نتعمد الإجابات الخاطئة كنوع من أنواع التضليل، أو التسويف، أو ربما التدليل. هناك عشرات الإجابات على هذا السؤال وكلها تصلح لتبرير الجنوح للإجابات الخاطئة، لكن إجابة واحدة فقط أقنعتني حين فكرت فيها وجالت بخاطري، نحن نجيب إجابات خاطئة لأننا نسأل أسئلة خاطئة. قد تكون إجاباتنا صحيحة وتناسب الأسئلة تمامًا لكنها لا تساعدنا على الوصول لأن الأسئلة المطروحة في الأساس غير صحيحة.

القصة إذن لا علاقة لها بالإجابات كما يظن الجميع، كل ما في الأمر أنك تجيب على أسئلة الأحياء بامتياز بينما الاختبار القائم حاليًا هو اختبار للجغرافيا. تختار مادة التاريخ كمادة تأهيلية لكلية الطب وتنال أعلى العلامات التي لن تشفع لك أبدًا كي تصبح طبيبًا. يبدو الأمر جليًا الآن، نحتاج لأسئلة صحيحة، فكيف نحصل عليها؟ كيف يمكننا استبدال الأسئلة الصحيحة بأخرى خاطئة؟

في مسلسل «ضمير أبلة حكمت» للكاتب والسيناريست أسامة أنور عكاشة، كانت حكمت فهمي (فاتن حمامة)، المربية الفاضلة ومديرة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مدرسة نور المعارف مثال للساعي النجيب. تحاول الإجابة على كل الأسئلة ببراعة ومهارة. لم تتوان عن حل مشاكل طالباتها، بل ومعلمي ومعلمات المدرسة أيضًا. وفجأة، وبعد أن واجهتها أزمة في حياتها العملية جعلتها تستقيل من عملها، ظهر لها صلاح أبو رحاب (جميل راتب)، زوجها السابق والثري الحالي -الرجل الذي فارقته منذ أكثر من عشرين لاختلافها معه أخلاقيًا على طريقة سعيه وحصوله على المال- وقرر منحها ثروته كاملة أو بمعنى آخر التنازل عن الثروة لها بسبب إقباله على إجراء جراحة خطيرة نسبة نجاحها ضئيل جدًا كما أخبرها.

حاولت حكمت منذ هذه اللحظة استغلال الثروة الاستغلال
Telegram:@mbooks90
الأمثل، كيف تنفق هذه الأموال في شيء نافع، يفيد البشر ويؤتي ثمار ما تعلمته وأرادت تطبيقه طوال سنوات عملها في الحياة التعليمية. حاولت إنشاء مدرسة خاصة نموذجية تكون هي مديرتها فرفضت وزارة التربية والتعليم، حاولت إنشاء مؤسسة خيرية تنفق على مشروعات تطوير وتنمية القطاع التعليمي فرفض محامي صلاح أبو رحاب تصفية أعماله بحجة أن بورصات لندن ونيويورك ستوقف تداول أسهم شركات أبو رحاب -شركتها حاليًا- بمجرد محاولتهم تصفية الشركات.

ظلت حكمت في هذه المعضلة لفترة طويلة، غير قادرة على إجابة سؤال بسيط جدًا بعد أن ظنت سابقًا على عشرات الأسئلة في مدرستها، سؤال: كيف أنفق هذه الأموال في خدمة الناس وتنفيذ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أفكاري؟ كان سؤال آخر يلح على عقلها في الخلفية، كيف أطهر هذه الأموال التي حصل عليها - بالتأكيد - صلاح من مصادر غير مشروعة. كانت إجابة السؤال الثاني بالنسبة لها بديهية، فبمجرد توجيه هذه الأموال لعمل نافع تكون قد طهرتها وانتصرت عليه مرة أخرى وأكدت له صواب مبادئها التي تركته من أجلها منذ عقود.

بقي إذن السؤال الأول، كيف لها أن تنفق هذه الأموال لتطهرها. حاولت وظلت تحاول، وحين شعرت بالعجز توقفت للحظات وتساءلت: هل كانت إجاباتي على سؤال الإنفاق والتطهير صحيحة؟ كل الشواهد حولها تؤكد ذلك، تشجيع المعلمين، التغيير -للأفضل- الذي حل بطالباتها، انتصارها في بعض المعارك الشخصية. لكن شيئًا ما لم يكن على ما يرام، هي نفسها. حين حازت هذه الثروة بدأ الجميع في خطب ودها طمعًا في أموالها. طبيبها الخاص وصديقها المقرب أعرب عن رغبته في مشاركتها إياه تأسيس مشفى استثماري ضخم، أخوها الأصغر عرض عليها إنشاء شركة استيراد وتصدير، حتى خادمتها الأمينة لم تنج من نخ المال وفتنته.

هنا توقفت حكمت وأعادت النظر في الأمر برمته. هل من الممكن تكون إجاباتها صحيحة بالفعل لكن أسئلتها غير ذلك؟ لقد كانت طوال الوقت تحاول الإجابة على سؤال «ماذا أفعل بالثروة لتطهيره» لكنها تجاهلت سؤالًا آخر يبدو أكثر وجاهة الآن. لماذا أحاول تطهير هذه الثروة؟ لماذا وجدت فيها الملاذ لي بعد فشلي في حياتي العملية؟ بل لماذا قبلت هذه الثروة من الأساس وأنا أعلم مصدرها؟ هنا جاءت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لحظة الحقيقة، أضاءت كل هذه الأسئلة فجأة في رأسها وبدت شديدة المنطقية. هي إذن تحاول الإجابة على سؤال خاطئ من البداية. لقد اندفعت تحت تأثير وفتنة المال في أحلامها وأجابت -أو حاولت الإجابة- عن كل الأسئلة الاختيارية، ونست -أو تناست- الإجابة على السؤال الإجباري الأول والأوحد في ورقة الأسئلة: «لماذا كل هذا؟».

حين أدركت ذلك، تغير الأمر برمته. عرفت أنها أخطأت حين قبلت الثروة من الأساس، وأن محاولات تطهيرها ستبوأ بالفشل، وأن المبادئ لا تتجزأ، وأن ماء البحر سيبقى مالحاً للأبد حتى وإن هطلت عليه الأمطار العذبة إلى يوم الدين. عندئذ أجابت إجابة جديدة وأخيرة، سترفض الثروة وتعيدها إلى صاحبها.

ينتهي المسلسل، أو يوشك على الإنتهاء، مع مشهد عودة صلاح أبو رحاب ومحاورته لحكمت واعترافه بأنها كانت وما زالت على صواب. ثم يسدل الستار على مشهد نهاية إيجابي بامتياز، مشهد لنهاية المسلسل وكذلك نهاية الطريق والسعي. تم تكريم حكمت فهمي من اليونيسكو واختيارها سفيرة لهم في مصر. كذلك أطلق محافظ الإسكندرية اسمها على مدرستها السابقة «نور المعارف» لتصبح مدرسة حكمت فهمي. هذه نهاية تليق بسعي استمر فكان الوصول هو المكافأة المناسبة له.

مسلسل ضمير أبلة حكمت مجرد مثال لما يحاول أغلبنا القيام به طوال

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الوقت. نحن نجاهد من أجل إجابة الأسئلة المطروحة علينا -أو تلك التي افترضنا أنها طرحت- إجابات صحيحة، والحقيقة أننا غير مطالبين بذلك في اعتقادي. المطلوب أن نجيب أية إجابات -صحيحة كانت أو خاطئة- على الأسئلة الصحيحة. المطلوب أن نسأل أسئلة صحيحة ثم نحاول الإجابة عليها بقدر الإمكان.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخطوة العاشرة هل هناك حقًّا طريق؟

«الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا»

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(١٠)

هكذا تكون رحلتنا قد انتهت. حين ندرك أننا لسنا في لجنة اختبار كما نتخيل، وأننا لا نجيب الأسئلة التي تطرح علينا، بل نحن من نختار الأسئلة ونطرحها، حينها فقط سنظن أننا وصلنا إلى نهاية الطريق، لكننا سندرك أنه لا يوجد طريق من الأساس!

طبقًا لقاموس أوكسفورد يعرف الطريق بأنه الممر الواسع الممتد، وهو أوسع من الشارع في القاموس المحيط والمعجم الوسيط، ويستخدم للسفر والترحال. بالنظر لهذه التعريفات فإن كل طريق له نقطة بداية ونهاية، بينما طريقنا كما يبدو لا نهاية له. لو افترضنا أن الإنسان يمر في رحلته بعشرات الطرق التي ينتهي بعضها نهاية سعيدة بينما ينتهي البعض الآخر -لو انتهى- نهاية غير سارة، فالأولى حينها أن نعتبر أن الرحلة طريق واحد لا نهاية له، طريق مليء بالمحطات والمنعطفات، طريق نهايته الوحيدة هي الموت. فأي نهاية أخرى هي في الحقيقة ليست نهاية، نهاية لا تعني الوصول كما ذكرنا من قبل، فإما هو وصول زائف كما وضحت في محطة «حتمية الوصول»، أو وصول مؤقت ربما ينقلب مع الوقت لفشل كما هو حال الثورة الفرنسية، أو وصول قد يراه صاحبه نفسه لاحقًا فشل.

هل هناك فائدة من التسليم بعدم وجود طريق من الأساس؟ أظن أن الإجابة هي نعم. الاتفاق على عدم وجود طريق يطعن في معضلة «استمرارية السعي-حتمية الوصول» وينفي وجودها من الأساس.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فك الارتباط بين الفعلين ضروري بما لا قد يتصوره إنسان، والإصرار على هذا الارتباط هو أول مسمار في نعش هذا السعي. هل يعني هذا أن نسعى بلا هدف طالما أن الطريق أبدي، لا نهاية له؟ بالتأكيد لا، المشكلة هي تصور ضرورة وجود طريق من أجل هذا الهدف، أو بصورة أبسط المشكلة الأساسية في اختيار أهداف لا تصلح إلا بوجود طريق لها. لو استطعنا أن نجعل هذا الخط المستقيم -الطريق- مجرد نقطة، نقطة واحدة لا بداية ولا نهاية لها لكان اختيار الأهداف حينها أكثر يسرًا، وكان تحقيقها أقرب للحقيقة منه للزيف. سنكون أكثر قدرة على التخطيط لأهدافنا وتحقيقها، بل وتخطي فشلنا -إن فشلنا- بسهولة، فهو ليس نهاية المطاف، ببساطة لأنه لا نهاية كما قلنا.

لو أعدنا النظر في محطاتنا العشر التي مررنا بها هنا، سنجد أن أغلب المشكلات التي تواجهنا في هذه الرحلة -أو هذا الطريق- كانت بسبب تصوراتنا عن الطريق ومحطاته.

فالطريق مقفر، لأننا نبدأ الرحلة -الطويلة من منظورنا- دون زاد، نشعر أنه مقفر فقط لأننا نظن أنه طويل طالما هو طريق. بينما لو سلمنا بأن هذا الطريق ما هو إلا نقطة، أو على الجانب الآخر افترضنا أنه رحلة لا نهاية لها يمكننا التوقف حينما نشاء للتزود، الاستراحة، أو العودة أدراجنا، فلن نراه مقفرًا مرة أخرى.

والطريق ممكن، بل وقريب، لأنه طريق. وأي طريق له نهاية،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وطالما سرنا فيه فقد اقتربنا من نهايته. لكن ماذا لو لم يكن طريق؟ هل ستكون هناك نهاية؟ سنكون كل اللحظات على هذا المسار لحظات مطلقة، لن يكون هناك نسبية تمكننا من قياس القرب والإمكان. تبدو هذه الكلمات وكأن اقتراب الطريق حدث سلبيٍ، لكن في الحقيقة القرب في حد ذاته ليس بهذه السلبية، المشكلة دوما في الأمل الذي يصاحب هذا القرب، واليأس والإحباط الذي يرافق ابتعاد الهدف مرة أخرى.

ومع حلول اليأس ضيفًا، يبدو خيار الموت على الطريق رومانسياً لحد بعيد. هنا تظهر مشكلة أخرى، فالموت على الطريق عمل نبيل لكنه انتحار بدون مقابل. لو لم تخلف هذه المعركة ضحايا، أو أثمرت بعض الفوائد لكانت التضحية عظيمة ومرغوبة. لكنها حينها لم تكن لتندرج تحت مسمى «الموت على الطريق».

Telegram:@mbooks90

ماذا لو كان الطريق طويلا.. جدا؟ هل سنستمر في السعي؟ هذا هو السؤال الأهم. يمكننا ببساطة التنظير والحديث عن الاستمرار وضرورته طالما هناك وصول، ونهاية. لكن الحقيقة الصادمة أن الطريق لا نهائي والوصول غير حتمي، الطريق وسيلة وليس غاية، والوصول لنهايته غير مؤكد، بل أزعم أن نسب الوصول أقلٍ بكثير من نسب عدم الوصول، وأزعم أيضًا أن هذا لن يكون مبررا لعدم استكمال السعي، وأن أي رقم هو في الحقيقة أكبر من الصفر، لذلك لا يتساوى الساعي وغير الساعي أبدًا حتى ولو تساووا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تم الرفع بواسطة:
Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner